الفصل الثاني والاربعون بعد المئة

النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة ، لكونه كلاماً مرسلاً حراً لا يتقيد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية ، والإنشاد بأنغام متباينة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترن بعزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه ، وصار من الممكن خزنه في الذاكرة أمداً طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا خزنه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات الخزن المذكورة فيه .

والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب ، لكونه قطعة فنية ، تعبر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حبك القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنميق الكلم ودبج الكلمات ، وحلاوة وطراوة وسحر وبيان ، فهو كلام عال لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وانما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . ولهذا ، نستبعد من هذا النثر ، ما وصل الينا من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كتبت في تقديم نـذور ، وفي معاملات : من بيع وشراء ، وتثبيت ملك ، أو تحديد حدود ، أو في قوانين وأوامر ، ولم تكتب في أغراض أدبية خالصة .

وبين أيدينا خطب طويلة ومتوسطة وقصيرة ، نسبها الرواة الى خطباء جاهليين، زعموا أنهم كانوا في أيامهم آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأساطير وقصص زعم أهل الأخبار أنها أخبار صحيحة وروايات مروية،وأصول منافرات ومفاخرات ومعاتبـات ومشاتمات ، زعموا أنها جرت في الجاهلية ، وانتقلت أصولها بنصها وفصها وحروفها وكلمها من رواتها الى الإسلاميين ، فـدوّنت في كتبهم ، كما رووا حكماً وأمثالاً وأقوالاً ، زعموا أنها لحكماء من أهل الجاهلية حفظهـا الناس حفظاً ، ورووها رواية رجـلاً عن رجل ، وجيلاً عن جيل ، حتى وصلت مرحلة التدوين . وكل هذا المسجل الذي نتحدث عنه ، هو من مدوّنات أهـل الإسلام ، ليس فيه من مدوّنات أهل الجاهلية أي شيء .

وبين هذا النثر ، خطب منمقة مزوّقة ، نسبت الى ملـوك وسادات العرب البائدة ، الذين بادوا قبل الإسلام بعهد طويل ، ومـات معهم أدبهم بالطبع ، وخطب نسبت الى التبابعة ، وقد هلكوا أيضاً قبل الاسلام ، وكـلام نسب الى أنبياء جاهليين ، والى الجن أيضاً ، رواه أهل الأخبار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإفصاح عـن كيفية وصول تلك الخطب وذلك الكلام اليهم ، مع أنهم كرّروا القول بأن كلام بعضهم كان كلاماً آخر يخالف كلامنـا ، وأن عربيتهم لا تشاكل عربيتنا ، فكيف نقلوها ودوّنوها إذن في الاسلام ؟ ان نثراً من هذا النوع هو نثر مصطنع بالطبع صنع على لسان أولئك الماضين ، من غير شك ولا شبهة ، فهو من هذه الناحية مكذوب مرفوض .

وأما النثر المنسوب الى العرب الذين عاشوا قبيل الاسلام ، أو أدركوا الاسلام، فالصحيح فيه أقـل من المصنوع ، خاصة نصوص الخطب والحكم والمواعظ ، والقصص والأيام ، والوفادات والخطب الطويلة ، لأن من المستحيل على الذاكرة، حفظ الكلام المنثور بالحروف والكلمات حفظ أشرطة التسجيل له أو للغناء أو الموسيقى، مهما وهب الله تلك الذاكرة من قوة في قدرة الأخذ والحفظ . ثم هي إذا حفظته اليوم ، فلا بد وأن تتعثر به غداً ، ثم يزداد تعثرها به بعد ذلك . هذا رسول الله يذكر (قس بن ساعدة الإيادي) ، فيقول : « رحم الله قساً كأني أنظر

اليه على جمل أورق ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه »[1] ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجـد الرواة على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصّها[2] ، وهذا حديث رسول الله التام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواته قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب للمكتوب . خذ صيغ التشهدات في الصلاة مثلاً ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء يختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) يختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبـي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جـابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمني رسول الله التشهد وكفّي بكفّه ، كما يعلمني السورة من القرآن » ، وقول (أبـي سعيد الخدري) : « وكنّا لا نكتب إلا القرآن والتشهد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن »[3] ، بل خذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدوّن ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشدّ منها ، ودوّنوه ساعة الوحي ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيـه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بحضرة ملوك الحـيرة ، أو الغساسنة ، أو تبابعة اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم ممن هلكوا وبادوا قبل الاسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق بخطب زعم انها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك الى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب[4] ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

---

١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .
٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١/١٤٧ وما بعدها) .

« الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم،وانما رويت بالمعنى». وسبب ذلك ، انهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشية وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه تترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوّزوا الرواية بالمعنى. ولهذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على إثبات القواء- الكلية في لسان العرب »[1] ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية . وانما كان ذلك لأمرين : أحدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب،ولا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[2] . « وفي سنن الترمذي ، عن مكحول عن واثلة بن الأسقع قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية الذهبي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثتكم بالحديث على معناه فحسبكم »[3] .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف، وهم معه في كل وقت ، يحدثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله ني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعه منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

---

١ خزانة الادب (١/٥) ، (طبعة بولاق) .
٢ خزانة الادب (١/٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٣/٢٥٩) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس »[1].
وكان من الصحابة من يروي حديثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعـاً اذا لم يخالف المعنى .
وروي عن (مكحول) ، « قال دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيـد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم ومـا نحن له بحافظين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وانكم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وانما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون، ومن كتب منهم فإنما كان يُكتب لهم بعد السماع،وكان كثير منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصراً عن أداء المعنى بتمامه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغيير له محيلاً له وموجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى »[2] .

ولتجويزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتج أئمة النحو المتقدمين من المصرين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقـل عن العرب « ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكـان الأولى في اثباته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنـه أفصح العرب »[3] . جرى على ذلك الواضعون الأولون لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبـي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبويه من أئمة البصرة، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن المبارك الأحمر ، وهشام الضرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى

---

١ انعراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣/٥٠) ، أبورية (٧٨) .
٢ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .
٣ الخزانة (١/٤ وما بعدها) .

القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية[1] .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن حديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً واكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) الثقفي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطُرح لهم مخادٌ عليها صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يبتذل ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحِنطة . فقال : هذا عقل الحنطة[2] . أو أن نصدق بكلام وفد (طي) إلى (سواد بن قارب) الدوسي ، وامتحانهم إياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم[3] ، أو كلام الكاهنة (عفيراء) الحميرية[4] ، أو كلام (ابنة الخس)[5] ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تبابعة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم ينله تغيير ولا اعتراه تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب،وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، اذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »[6] ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

---

١ الخزانة (١/٥) .
٢ المصون (١٩٨) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٦) .
٥ في جملة كتب « ثعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الخس ، الفهرست (١١٧) ، (الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في أخبار العلماء) .
٦ اللسان (١٢/٣٤) .

وهو مرتجل الخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعها سماعاً ولا يكتبها على صحيفة ، فهل يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب منثور !

السجع :

وقد جعل (الجاحظ) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأسجاع ، والمزدوج ، والمنثور »[1] .

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على روي واحد . وقيل : السجع أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن[2] . وقد ألف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غلب على كلامهم ، واختص بهم ، كما اختص الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه وسلم ، نهى عن السجع في الدعاء . قال الأزهري : انما كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلة كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل »[3] . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت احداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنينها غُرّة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وورثها ولدها ومن معهم . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل ، فقال رسول

---

١ الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٢ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .
٣ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع »[1] .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أسجع كسجع الجاهلية[2] . « وكان الذي كره الأسجاعَ بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شقّ وسطيح ، وعُزّى سلَمة ، وأشباههم : كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعُقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العُشراء ، للمجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع ابن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، وينفرون بالأسجاع ؟ وكذلك ربيعة بن حذار .

قالوا : فوقع النهيُ في ذلك الدهرِ ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم .

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخُطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم[3] .

وقد كان الكهّان حكّاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي اليهم المتخاصمون ، وبعد أن يؤكدوا لهم رضاهم وقناعتهم بحكمهم ، يحكمون بينهم فيما يرونه . وينسب الناس الى الكهان إدراك الغيب برئي يأتي اليهم فيلقي لهم بما يراه ويعلمهم من المغيبات عما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد : الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل بشيء قبل وقوعه[4] .

---

١ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، صحيح مسلم (١١٠/٥) .
٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .
٣ البيان (٢٨٩/١ وما بعدها) « لجنة » ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .
٤ بلوغ الارب (٢٦٩/٣) .

ويفهم من روايات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس،فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأيهم وللفصل في الخصومات والمنازعات . وقد منعها الاسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر[1] .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كذبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب الى (زبراء الكاهنة) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم[2] . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة وبالبحث .

وقد أشير الى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[3] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[4] . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجنون[5] ، فوبخوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمداً ليس بكاهن فتقولوا هو من سجع الكهان »[6] . « وكانت قريش يدعون انهم أهل النهي والأحلام »[7] ، « فقال الله أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً بكماً صماً ، ويتركوا عبادة الله ، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لدنياهم »[8] ، فانزعجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجنون . وفي اتهامهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »[9] ، دلالة على وجود السجع عند الجاهليين ، وانه كان من نمط الكلام الذي اختصوا به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كنا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب اليهم .

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٠) .
٢ راجع كلامها لجماعة من قضاعة في بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الاية ٢٩ .
٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الاية ٤٢ ، تفسير الطبري (٢٩/٤١) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٦ تفسير الطبري (٢٩/٤١ وما بعدها) .
٧ تفسير النيسابوري (٢٧/٢٥) ، (حاشية على الطبري) .
٨ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٩ تفسير الطبري (٢٩/٤١) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن (ضماداً) لما قدم مكة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته ، فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »[1] . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة الى الكهنة والسحرة ، والشعر بالنسبة الى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجاعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر (الجاحظ) أن (الكهان) كانوا « يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[2] ، هذه (زبراء) تنذر (بني رئام) ، عن أنباء ستقع ، فتقول « واللوح الخافق والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثُكلا ، لا تجدون معه معلا ، فوافقت قوماً أشارى سكارى ، فقالوا : ريح خجوج ، بعيدة ما بين الفُرُوج ، أنت زبراء بالأبلق النتوج . فقالت زبراء : مهلاً يا بني الأعزة ، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتى منهم يقال له هُذيل بن منقذ: يا خذاق ، والله ما تشمين إلا ذَفَر إبطيك، فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلوهم أجمعين »[3] .

وهذا كاهن (بني أسد) (عوف بن ربيعة) ، يأتيه (رئيه) ، فيتكهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ! قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينشعب ، وهذا غداً أول من يُسلب ، قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال :

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤/٢٤١) ، (الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار) .

٢ البيان والتبيين (١/٢٨٩ وما بعدها) .

٣ الامالي للقالي (١/١٢٦ وما بعدها) .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجر فهجموا على قبته »[1] .

وهذا (خنافر بن التوءم) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، يأتيه (رئيه) بعد غيبة طويلة ، فيقول : (خُنافر) فيجيبه : (شصار ؟) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر : قل اسمع ، فقال : عه تغنم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد الى غاية . قال خنافر : أجل ، فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت النِّحَل ، ورجعت الى حقائقها الملل ، انك سجير موصول ، والنصح لك مبذول ، وإني آنست بأرض الشأم ، نفراً من آل العُدام ، حكاماً على الحكام ، يذبرون ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت ، فقلت بمَ تهيمنون ، وإلام تعترون ؟ قالوا : خطابٌ كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وان خالفت أصليت سقر ، فآمنت يا خنافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغي هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرَّين ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم املس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي النور امتطيت راحلتي ، وآذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ، فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقابها ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الاسلام وعلّمني سوراً من القرآن ، فمنّ الله عليّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة » .

---

١ الاغاني (٨٤/٩) .

وهكذا أسلم – على حد قول أهل الأخبار – والفضل يعود في ذلك الى (رئيه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهـر الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمد الله فيه على أن منّ عليه بالاسلام ، ويذكر (رئيه) (شصار) بالخير ، إذ لولاه لكـان في نار جهنم[1] .

وأسندوا له قوله :

ألم ترَ أن الله عاد بفضله وأنقذ من لفح الجحيم خنافـرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها لأصليت جمراً من لظى الهون جائرا

وهو خبر يرجع سنده الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبـار المنثورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن[2] . لا أدري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الـذي صنعه ووضعه ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحيلات .

وقد أمات الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتثها وحاربها ، وحث على نبذ سجع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم انخذل ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نمط قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رئيهم) ، دوّنه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يتركوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتدوين كـل محضر ساعة وقوعه . وتجد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رئيهم) حين أدركوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف اللهبي (العائف)[3] ، و (الغيطلة) الكاهنة[4] ، والكاهن (خطر)[5] ،

---

١ الامالي (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٤٥٧) ، (٢٣٤٢) ، الاستيعاب (١/٤٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/١١٨) ، (حاشية على الروض) ، (١/١٣٥ وما بعدها) ، (أخبار الكهان) .
٤ ابن هشام (١/١٣٧) ، الروض الانف (١/١٣٧) .
٥ ابن هشام (١/١٣٨) .

والكاهن (سواد بن قارب) الدوسي[1] ، و (ابن الهيبان)[2] ، والمأمور الحارثي[3]، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكهان ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهو قصير الفقرات ، يلتزم التقفية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعمد الى الألفاظ العامة المبهمة المعماة ، والى تكوين الجمل الغامضة، ليمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بتفاسير كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذي يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجاهل الكاذب . أما السجع المنسوب الى الخطباء ، ففقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متحرر نوعاً ما من قيود سجع الكهان ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره بيان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن. جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ، وقد يكون مرسلاً ، خالصاً من تساوي الجمل والتزام القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجع خفيف مقبول .

وبالاضافة الى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيماءة والرموز والتكنية عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحذر افتضاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويمعن في الاستفسار ، حتى يستنبط من ذلك بفطنته وذكائه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحرة والعرافين ، كما كان يعمد الى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم،وشمس وقمر،ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر،وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور . ولكن المتتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، ولحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، واللبن ، والقوس ، والعصا ، فإن لهذه الأمور وأمثالها معاني عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيها في

---

١ ابن هشام (١/١٤٠) .

٢ ابن هشام (١/١٤١) .

٣ الامالي (١/٢٧٦) ، الاغاني (١٥/٧٠) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك العقائد ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسماء ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك[1] ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتأولوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرفوا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحله ، والبذرة التي أنبتت الشعر العربي . ويتكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طوّر الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)[2] . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاوجة والازدواج بمعنى واحد . وازدوج الكلام وتزاوج أشبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن[3] ، والازدواج لون من ألوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المنثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انقياداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من ألوانه ، خففت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بني أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وُعِدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »[4] .

---

١ تفسير الطبري (١٥٣/٣٠ وما بعدها) .
٢ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.
٣ تاج العروس (٥٥/٢) ، (زوج) .
٤ البيان والتبيين (١١٦/٢) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومطاعنها على خطباء العرب عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة ، وعقد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصرة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « وبمطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لم يُقفّ ، وبالأرجاز عند المتح ، وعند مُجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادة والمحاورة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المنثور في خطب الحمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلّ السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الاشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخدّ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت في كلامها ، وافتتنت يومَ الحفل في مذاهبها ، ولزومهم العمائم في أيام الجمُوع ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة ، وأكد شأن المحالفة ، وحقق حُرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتماسح بالأكف ، والتحالف على النار ، والتعاقد على المِلح ، وأخذ العهد الموكّد واليمين الغموس ، مثل قولهم ما سرى نجم وهبت ريح ، وبل بحر صوفة ، وخالفت جرةٌ درة »[1] . فنحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي الى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فمساجلة الخصوم ، تكون بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لا يقفى ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المتح ، أي الاستقاء من البئر ، وفي حالات البناء ورفع الحجر ، وفي القتال ، فتستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمفاخرة ، وأما المنثور ، أي الكلام المرسل ، الخالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الحمالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الدية ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والصغائن ، الى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير النثر ، وغير

---

١ البيان والتبيين (٣/٥ وما بعدها) .

المزاوجة ، وغـير الرجز . وقد جعل (الجاحظ) الكلام المنثور : أسجاعاً ، وازواجاً ، ومنثوراً[1] . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أثق بصحة هذا النثر المنسوب اليهم ، وأثبت صحة نصه ، وانما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا على المدون المعمول عليهم ، الوارد الينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صيغ على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ، وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم ايجاداً ، فهم إذ وضعوا على ألسنة أهل الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة، وعلى نمط كلام سابق كان مألوفاً عند أهل الجاهلية الذين أدركوا الاسلام. ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام . فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وان النثر انما ظهر وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكان لهم كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المثبتة المدوّنة ، هي نصوص لا يجوّز العقل أن تكون صحيحة أصيلة مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثني الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عممته على نصوص النثر الجاهلي ، فالأمثال بحكم ايجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية تحفظها الذاكرة ، ولا تخطىء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصلها ونصها ، ودليل ذلك اننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين وكتبهم ، ولهذا فنحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ، أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى[2] . أما بقية النثر ، فأنا على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه،وإن كنت أوافق على جواز بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٨) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٢٩) .

االروة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روته ودبجته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت الينا .

وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنثور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دوّن ساعة نزوله ، دوّنه كتبة عند نزول الوحي ، وأخذه عنهم كتبة آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من آي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم،وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا الى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب محاججتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج »[1] .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا ان فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روي بالمعنى ، لتجويزهم الرواية عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن تقوّل على رسول الله متعمداً ، تبوأ مقعده في النار . وقد روي الحديث رواية ، أي مشافهة ، غير ان من العلماء من ذكر ان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك انه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مَثَل ، وروي عن (ابي هريرة) قوله: « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »[2] . ولكننا لم نسمع بما حل

---

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .

٢ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) .

بالصحف التي دوّن بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدري اذا كان ما روي عنه في المسانيد ، مثل مسند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلاً أم رواية[1] .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجد نقولاً منها في البخاري ، وفي مسند (أحمد بن حنبل)[2] . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[3] . وهذه الصحيفة ، إن صح انها من وضع (همام بن منبه) وانها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، وان كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضاً ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب الى الصحة من صحيفة (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دوّن حديثه بحضرة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو ينتظر من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تنسب الى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه »[4] ، ومن أخبار تنسب الى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا الى (عمر) من انه كتب الى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنشد الناس أن يأتوه بصحف الحديث ، فلما أتوه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

---

١ راجع في موضوع الحديث : أبورية ، أضواء على السنة المحمدية .

٢ مسند الامام أحمد بن حنبل (٣١٢/٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تاريخ الطبري » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .

٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .

٤ أبورية ، أضواء (٤٦) .

مثناة كمثناة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك النـــاس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »[1] ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابـــة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريق ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إمحائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيهـا حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستعزون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ولخوف الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سنداً لهم ، اتخاذ اليهود للمثناة ، أي (المشنا) ، أمـروا باتلافهـا وبالنهـــي عن التدوين . والاكتفاء بالحديث مشافهة ، وبنشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متبعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حمل علماء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما بينت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تفد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاه الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الاسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجاهلية ، ألقي بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والعقلية الجاهليـــة أيام ظهور الاسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة الى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتواريخ يروونها بصور مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواة لم ينقلوها من أصـــل مكتوب ، وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثَمّ هذا الاختلاف. أضف الى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير عـلى أن بعض

---

١ المصدر نفسه (٤٦ وما بعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتباً مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »[1] ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب عليّ يبني له بيتاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل[2] ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه اليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوضّح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الإختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[3] .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا النحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم على ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهماً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفود ، وما كانت الوفود تقوله له ، فكيف نصدق بصحة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد ألقيت بلهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتبة ولا مدوّنون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضرته من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في (حجة الوداع) تجدها وقد

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (١٢٢) ، (تحقيق اكرم ضياء العمري) ، (من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار) ، « والله ما قال متعمدا ، وأنتم تقولون متعمدا » ، أبورية ، أضواء (٦٢) .

٢ أبورية ، أضواء (٥٩ وما بعدها) .

٣ الرافعي (٣٢٥/١) .

رويت بصور مختلفة[1] ، وفي هذا الاختلاف دلالة بينة على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإلا لما جاز عقلاً وقوعه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الاسلام اتخاذ كتّاب لتدوين ما كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكّام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدهم وحروبهم ، وخطبهم ومفاوضاتهم مع سادات القبائل . وكذلك كان الحال في الاسلام ، بل ولا رواة لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واذاعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتواريخ وتخليدها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التأريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رووا ما شاهدوه لأصحابهم، كما يروي أي إنسان ما قد يقع له من أمور لأصدقائه،وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وبهذه الطريقة وصلت الأخبار الى المدوّنين عندما بُدىء بالتدوين.وليس من المعقول بالطبع محافظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللكلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المعقول أيضاً وصولها سالمة نقية من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . ولهذه الأسباب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعي كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها،أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأنا أشك في صحة أكثر ما نسب الى (مسيلمة) من كلام وقرآن . وهو (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، المكنى بـ (أبي ثمامة) ، والمنعوت بين

---

١ راجع كتب السير والتواريخ في خطبة الوداع ، الطبري (٣/١٤٩ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٣١) ، ابن الاثير (٢/١٤٦) .

المسلمين بـ (الكذاب)[1] . واسمه الصحيح (مسلمة) ، وقد صغر في الاسلام، ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآناً مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا بشيء عن قرآنه . واذا صح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمكة أو باليمامة قبل الاسلام ، وانه نزّل على نفسه آيات زعم انها تنزيل من الرحمان ، فيكون قد باشر بتأليف قرآنه قبل الوحي[2] .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح اليه بشيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] . فقد ذكر علماء التفسير ان عبارة : « أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه بشيء »، نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيما كان يسجع ويتكهن به . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي : عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل، فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوله ثم أقول لما أكتب،فيقول : نعم سواء »[4].

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمان ، وإنا والله ما نؤمن بالرحمان أبداً »[5] ، وذكر أهل الأخبار ان قريشاً « حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[6] ، لأنهم كانوا قد سمعوا بدعوته الى عبادة الرحمان ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

---

١ « وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان ابن ذهل ، بن الدول بن حنيفة . يكنى أبا أمامة ، قيل أبا هارون ، وكان يسمى بالرحمان فيما روى عن الزهري قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف (٢/٣٤٠) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، (كذاب اليمامة) ، مروج الذهب (٢/٣٠٣) ، المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي (٢/١٢٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٢ تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : أنبياء جاهليون .

٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ .

٤ تفسير الطبري (٧/١٨١) .

٥ تفسير الطبري (١٥/١١١) .

٦ اليعقوبي (١/١٢٠) ، الروض الانف (٢/٣٤٠) .

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قالت قريش : أتدرون ما الرحمن ؟ هو كاهن اليمامة ! » . وقد قالوا لمسيلمة : رحمان ، وقالوا أيضاً فيه : رحمان اليمامة [1] .

وأنا لا أستبعد احتمال مجيئه الى مكة قبل الاسلام . فقد ذكر انه تزوج (كبشة) (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[2] ، وهي من مكة ، فلا يعقل عدم مجيئه الى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجيئه اليها بين الحين والحين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسيلمة الى عبادة (الرحمان) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه ، وكان رَجّال بن عنفوة من رائشي نبله ، والحاطبين في حَبله ، والساعين في نصرته . وكان مسيلمة يقول : يا بني حنيفة ، ما جعل الله قريشاً بأحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم . ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه ، فقام يوماً خطيباً ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه . أما بعد ، فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذّاب في ثلاثين كذّاباً قبل الدجال ، فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وغيبه وتصغيره ، وهو باليمامة يركب الصعب والذّلول في تقوية أمره ، ويعتضد برجال بن عنفوة ، وهو ينصره ويذب عنّه ويصدق أكاذيبه ، ويقرأ أقاويله التي منها : والشمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها . والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها فمحاها »[3] .

« ومنها : سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسّر على الحُبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم

---

١ الخزانة (٢/٢٨٥) ، (هارون) .

٢ كتاب نسب قريش (٢٠) ، الروض الانف (٢/١٩٨ ، ٣٤١) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (١/٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .

٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٥٩) ، المعارف (١٧٨) ، التنبيه ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السرّ وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشمس سراجاً، والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمّاناً ، وعنباً ، وريحاناً ، وحنطة وزؤاناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من إلَه »[1] .

« وكان رجّال بن عنفوة صاحب مسيلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن وأظهر الايمان ، وأسرّ الكفر . ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالس في أصحابه ، إذ سمع وطئاً من خلفه ، فقال : هذا وطء رجل من أهل النار ، فإذا هو رجّال بن عنفوة . فلما قدم وفد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم — وفيهم مسيلمة إلا انه لم يلقه — وأظهروا الاسلام وأرادوا الانصراف ، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا — يعنون مسيلمة — فقال صلى الله عليه وسلم : ليس بشرّكم مكاناً . فلما رجع الوفد الى مسيلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد فيّ : ليس بشرّكم مكاناً ، وقد أشركني في الأمر بعده ، فعليكم به . ولما انصرفوا الى اليمامة أعلن مسيلمة النبوة ، وادعى الشركة ، وفتن أهل اليمامة ، وانقسموا بين مصدّق ومكذّب ، وراضٍ وساخط . وكتب مسيلمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاباً قال فيه : الى النبي محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين ، فلما قرىء الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهما : ما تقولان ؟ قالا : نقول ما قال أبو ثمامة ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

---

١ ثمار القلوب (١٤٧ وما بعدها) .

وأملى في الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه انه جعل له الأمر من بعده ، فصدّقه أكثر بني حنيفة .

وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم،ويبارك لمولودهم، وجاءه قوم بمولود لهم فمسح رأسه فقرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر ، فمات من يومه .

وكان ثمامة بن أثال الحنفي يقشعر جلده من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن محمداً لا نبي معه ولا بعده ، كما ان الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نِقي نقي ، كم تنقين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشربَ تمنعين،من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلّه إلا هو اليه المصير . فقالوا : أوقح بمن يقول مثل ذلك مع مثل هذا ! »[1] .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين »[2] . وروي أن وفد اليمامة لما قدم على (أبي بكر) بعد مقتل مسيلمة ، « قال لهم : ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستعفوه من ذلك ، فقال: لتقولنّ . فقالوا : يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشارب[3] تمنعين ، ولا الماء تكدرين ... في كلام من هذا كثير . فقال أبو بكر : ويحكم ! إنّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ ولا بر ، فأين ذهب بكم »[4] ؟ ، أو أنه قال : « هذا كلام ما أتى من عند إل ، أي من عند الله . وهو في الأسماء الأعجمية إيل ، مثل إسرافيل ، وجبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل ، واسماعيل »[5] . وقيل الإلّ

---

١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢/١٨٠) .
٣ في الاصل « الشراب » ، وفي الموارد الاخرى الشارب .
٤ الفائق (٣/١٢٢) .
٥ الاكليل (٢/٧) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » . وقول حسّان :

لعمرك إن إلّك من قريش كإلّ السقب من رأل النعام[1]

وقد ذكر (الطبري) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول « أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عيّ لسانه ما كان مصوناً ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ... ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »[2] . والطبري وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحماقات ، لكنه قصد به مسيلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات آيات قالها (مسيلمة) حقاً ، فتلك قضية لا يمكن إثباتها ، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قرآنه الذي قيل إنه وضعه يضاهي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجد أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعلّه كان كلاماً لم يسجل في حياة مسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الاسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دوّن (الرافعي) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبري ، على هذه الصورة: « والمُبذرات زَرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ... لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ،

---

١ الفائق (١٢٣/٣) .

٢ تفسير الطبري (٥/١) .

والمُعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[1] ..

ونسب (الرافعي) له قوله : « والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون .

وقوله : « الفيلُ ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »[2] ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى »[3] . روي انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً ؟ قال : أوحى إليّ : ان الله خلق النساء أفراجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن قُعساً إيلاجاً ، ثم نخرجها اذا نشاء إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً انتاجاً . قالت أشهد انك نبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وبقومك العرب ! قالت : نعم ، قال :

ألا قومي الى النيك فقد هُيي لك المضجع
وإن شئتِ ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئتِ سلقناكِ وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليّ . فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان على الحق فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعي اليه ، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن ، وقال : ما لك ؟ قالت أصدقني صداقاً ، قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث بن ربعي

---

١ تأريخ آداب العرب (٢/١٧٩) .
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٤١) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٦/٣٢٦) ، الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .
٣ الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : عليَّ به ، فجاء ، فقال : نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر »[1] . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « على أن يحمل اليها النصف من غلاّت اليمامة ، وأبت إلا السنة المقبلة يسلفها ، فباح لها بذلك ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لكِ ، وانصرفي أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتملته وانصرفت به الى الجزيرة »[2] .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسيلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأتيك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يولجن فيكن إيلاجاً ، لا ترون فيه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبيّ مرسل » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبري ، غير أنها غيرت فيها بعض التغيير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصبح لأجل المهر[3] .

وزعم أن « من قرآن مسيلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات ذروا ، فالطاحنات طحناً ، والنازلات نزلاً ، فالجامعات جمعاً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، فالآكلات أكلاً ، والماضغات مضغاً ، فالبالعات بلعاً »[4] .

وقد اتخذ قتل (مسيلمة) فخراً ، فادعى قتله بنو عامر بن لؤي ، وادعى بعض الخزرج قتله ، وادعى (بنو النجار) قتله ، وادعى (حبشي) قاتل حمزة قتله ، وكان (معاوية يدعي قتله) ويدعي ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسيلمة[5] ، وهو قضاء سياسي لا أصل له بالطبع .

---

١ الطبري (٣/٢٧٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٧٥) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٧٣ وما بعدها) .
٤ نزهة الجليس (١/٤٧٤) .
٥ البلاذري ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة بقوا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره. ففي خبر ينسب الى (ابن مُعَيْز) السعدي انه مر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون (مسيلمة) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى (ابن مسعود) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلي عنهم ، وقدم (ابن النواحة) فضرب عنقه[1] . هذا ، ويدل تعلق (بني حنيفة) وغيرهم من عرب اليمامة بمسيلمة ، واستماتتهم في الدفاع عنه ، وتذكرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد. وقد نص (ابن حجر) على قتل (ابن مسعود) لابن النواحة ، إلا انه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوة (مسيلمة) ، وانما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتب فقتله على كفره وردّته »[2]. واسم (ابن النواحة) (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة[3] .

ويروى ان (الأخطل) الضبعي ، قال في مسيلمة :

لهفاً عليك أبا ثمامة لهفاً على رُكْنَيْ ثمامه
كم آيةٍ لك فيهمُ كالبرق يلمع في غمامه

وكان (الضبعي) شاعراً ، زعم انه ادعى النبوة ، وكان يقول : لمضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه (عمر بن هبيرة) ، ومن شعره:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرتبا[4]

أي راتبة في واحد .

وسئل (الأحنف بن قيس) رأيه في مسيلمة ، فقال : « ما هو بنبي صادق ولا بمتنبيء حاذق »[5] .

---

١ الفائق (٦٠٣/١) ، الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٢ الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٤ المؤتلف (٢٢) .
٥ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .

وأنا لا استبعد ما نسب الى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتسمية ذلك الوحي (قرآناً) أو كتاباً أو سفراً ، أو شيئاً آخر ، ولكني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب اليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق آحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثر ورودها في الكتب ظهرت وكأنها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رويت بعض الآيات مثل : آية الضفدع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت اليه، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة يناقضون أنفسهم كثيراً فيما نسبوه اليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسيلمة ، مثل شعره الذي قاله لسجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسيلمة دعاه : « كتاب مسيلمة الكذاب » ، لم يصل الينا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه: « كتاب أيام بني حنيفة » ، وهم قوم مسيلمة ، وكتاب دعاه : « كتاب أيام قيس بن ثعلبة »[1] .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأسدي الذي قاله لأصحابه : « والحمام واليمام، والصرد والصوّام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »[2] .

وروى (الطبري) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تغلب ، هو قولها لأتباعها : « عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » ، فلما جاءت مع قومها اليمامة ، قال لها مسيلمة : « لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة

---

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبري (٣/٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبـــار ، رب الغيوم والأمطار .

وقال أيضاً : لمّا رأيت وجوههـــم حسُنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوماً ، وتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحيون ، والى ملك السماء ترقون ! فلو انها حبة خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولأكثر الناس فيها الثبور .

وكان مما شرع لهم مسيلمة ان من أصاب ولداً واحداً عقيماً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمسك ، فكان قد حرّم النساء على من له ولد ذكر »[1] .

وبلاغة الكلام معروفة عند الجاهليين ، فقد كانوا ينعتون المتكلم الجيد بالبليغ ، وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً »[2] . والبليغ الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مرامه[3] . سأل (معاوية) (صحار بن عياش) العبدي[4] ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطىء ولا تبطىء . أو أنه قال له : مـــا البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الايجاز ؟ قال : أن لا تبطىء ولا تخطىء . وكان قد دهش من فصاحته وبلاغته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا فنقذفه كما يقذف البحر بزبده[5] .

وقد ميز (الطبري) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين الفصحاء والبلغـاء ، فالخطباء هم من جماعة صناع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم (البلغاء) ، صناع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل الفصاحة ، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم

---

١ الطبري (٣/٢٧١ وما بعدها) .
٢ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٦٣ .
٣ تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .
٤ « صحار بن عباس ؟ » .
٥ تاج العروس (٦/٥) ، (بلغ) ، الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح »[1]، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلم باسمهم ولسانهم ، والبليغ من يتحدث ويتكلم في المجالس والأندية ، بكلام بليغ رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه، ونجدهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلم ناثراً كان أو كان شاعراً .

وللبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »[2] . فجعل البيان في جملة ما علمه الله الانسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بلسان عربي مبين »[3] ، ووصف القرآن بقوله : « طس،تلك آيات القرآن وكتاب مبين »[4] . وينسب الى الرسول قوله: « إن من البيان لسحراً »[5] . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرىء القيس » . يضرب في تأثير الوقيعة[6] ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلغاء قريش وفصائحهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسأله عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه ليعلو وما يعلى،وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال: « سمعت قولاً حلواً أخضر مثمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليّ الشعراء شعرهم ! نابغة وفلان وفلان . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قد عرضت

---

١ تفسير الطبري (١/٥) .
٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبري (٢٧/٦٧) .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ ، الشعراء ، الاية ١٩٥ .
٤ النمل ، الاية ١ .
٥ البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، العسكري ، جمهرة (١/١٣) .
٦ الزمخشري ، المستقصى (٢٠/٥٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليّ الكهانة . قالوا : فهذ سحر الأولين اكتتبه . قال : لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو اذا سحر يؤثر »[1]، او أنه قال أشياء اخرى من هذا القبيل، اتفقت في المعنى والمقصد ، واختلفت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم، فقد روي ان (عمر بن الخطاب) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي عنه انه قال : « خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني الى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال : ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في قلبي كل موقع »[2] . وهي رواية تخالف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان قد خرج يريد قتل الرسول ، فتلقاه (نعيم بن عبدالله) النحّام ، وكان من المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : « اريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فاقتله » ، فقال له (نعيم) : « أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » ، فرجع عمر عامداً الى اخته وختنه وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه) يقرئها اياها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت (فاطمة) الصحيفة . فلما دخل (عمر) ، قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فأبت أخته اعطاءها إلا أن يغتسل ، فاغتسل عمر ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها وتأثر بها فأسلم[3] .

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٩٨ وما بعدها) ، سورة المدثر .

٢ الاصابة (٢/٥١٢) ، (رقم ٥٧٣٨) ، الروض الانف (١/٢١٨) ، ورووا له شعرا ، ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف (١/٢١٨).

٣ ابن هشام (١/٢١٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٢١٦) .

ورووا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان ممن أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيما بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح[1] .

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو البين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق[2] . وقد اشتهر (قس بن ساعدة الايادي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفصح من قس ، وأنطق من قس[3] ، وأبين من قس ، أي أفصح[4] ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعشى) بقوله :

وأبلغ من قسّ وأجرأ من الذي بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الحطيئة بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى إذا مضى من الريح إذ مسّ النفوس نكالها[5]

ونسبوا الى (قس) قوله ينصح ولده : « إنّ المِعا تكفيه البقلة . وترويه المذقة ، ومن عيّرك شيئاً ففيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومتى عدلت على نفسك عَدَل عليك من فوقك ، وإذا نَهَيْتَ عن شيء فانْهَ نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج اليه ، وإذا ادخرت فلا يكونَنّ كنزك إلا فعلك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى ، تسد قومك . ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً ، وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ولا تضعنّ في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك . وإذا خاصمت فاعدل ،

---

١ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .
٣ الزمخشري ، المستقصى (١/٣٩٣) ، (رقم ١٦٧٧) .
٤ المصدر نفسه (١/٣٢) ، (رقم ٩٩) ، العسكري ، جمهرة (١/٢٤٩) ، (رقم ٣٣٦) .
٥ المستقصى (١/٢٩) ، (رقم ٨٨) .

وإذا قلت فاقتصد . ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك اذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودَع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جنى عليك كنت أولى بذلك ، وان وَفى كان الممدوح دونك»[1].

وقد اشتهرت (إياد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء[2] . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجـر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »[3] .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليين أدب منثور ؟ أي مدونات من الأدب المنثور . لقد ذهب البعض الى انه لو كان للجاهليين أدب منثور مدون ، لعدّ عجيباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي، حتى من أحاديث العرب المنقولة[4] . والواقع ان من غير الممكن في الوقت الحاضر البت علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لنستنبط منها أحكاماً تؤيد أو تنفي وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية منثورة الينا ، أو عدم ورود إشارات الى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على اثبات عـدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز انهـا كانت ، ولكنها تلفت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الاسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا النزر اليسير ، وهو نزر يشك في أصالته وصحته .

وذهب بعض الى وجود أدب منثور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب منثور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

---

١ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ، المصـــون في الادب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (١/٤٢ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١/١٧٤) .

٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

الى الجاهليين . أما مؤلفات وكتب ، وصحف مدونة فلم يصل منها الينا أي شيء. ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهليين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللجاحظ رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام « فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده» ، على حين يكون كلام العجم « عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتُب »[1] . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمنثور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام[2] .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والانجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحناف كانوا قد وقفوا على كتب الله،وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بهما وبالعربية[3] ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب ممن كان بمكة كان يقرأ كتاب الله ، وكانت قريش ترى رسول الله يمرّ عليه ويجلس عنده ويستمع اليه ، فقالت إنما يتعلم (محمد) منه[4] ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير الى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دوّن ترجمة كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر (عمرو بن سعد بن أبي وقاص) (عمرو بر سعد

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٣/٢٩) .

٣ Georg Graf, Geschichte der Christlischen Arabischen Literatur, I, S. 34

٤ النحل ، الاية ١٠٣ ، تفسير الطبري (١٤/١١٩ وما بعدها) .

بر أبي وقاص) المذكور في تأريخ (ميخائيل السوري) (المتوفى سنة ١١٩٩ للميلاد) البطريق (البطريارك يوحنا) بطريق اليعاقبة ، ترجمة (الانجيل) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين (عمرو) وبين (البطريارك) بشأن الترجمة ، ثم من استعانة (البطريارك) بعد ذلك برجال من (تنوخ) ، و (عاقولا) ، و (طيء) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في (البطريارك) ، وضعه خصومه عليه[1] .

ولم تأت جهود (يومشتارك) وتلامذته بنتائج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلاة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام[2] . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعظون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا المنوال بالنسبة الى رجال الدين المتنقلين مع الأعراب ، فقد كانوا يتنقلون معهم ، يعلمونهم ويرشدونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون (الدفة) معهم ، حيث تحل القبائل ، لترتيل الصلوات على المذابح المتنقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها[3] . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربيات جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

---

١ Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855, Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'emir des Agaréene in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.
وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

٢ Islamic, 4 (1931), 562. ff.

٣ Georg Graf, I, S. 38.

وقد ورد ان عرب بلاد الشأم من لخم وجذام وغسان وقضاعة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »[1] ، وقُصد بالعبرانية السريانية، ولهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير انهم لم يشيروا الى ما كانوا يقرأون، ويظهر انهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

---

١ المزهر (١/٢١٢) .

obeikandl.com